

الزرادشتية ثنوية أم توحيد

أ.د طالب منعم حبيب الشمري / جامعة واسط / كلية التربية / قسم التاريخ
طالبة ماجستير / رنا كاظم معن / جامعة واسط / كلية التربية / قسم التاريخ

المقدمة

إن أهم مميزات الفكر الديني في الشرق الأدنى القديم هو تعدد الآلهة حيث لا يخلو أي فكر ديني في الشرق الأدنى القديم من كم هائل من الآلهة التي تجسد الظواهر الطبيعية كالسما والارض والهواء والرياح والأمطار، والآلهة المحلية والآلهة الحامية الشخصية وغيرها، تحت مسميات مختلفة من منطقة لأخرى كبلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر حتى إيران القديمة سوى عيلام التي كانت محاذية إلى جنوب بلاد الرافدين والتي كانت اشد ما تكون تأثيراً بالفكر الديني في بلاد الرافدين، أو في المناطق المختلفة من إيران الحالية والتي تمثلت في المناطق الشمالية والشمالية الغربية والتي كانت تسكنها أقوام اختلف في أصلها قبل توافد الأقوام الآرية التي سكنت في تلك المناطق والتي توافدت على شكل موجات من المناطق الشمالية الشرقية، وبعد توافد تلك الأقوام تجلى على الساحة الفكرية والدينية الإيرانية القديمة (الديانة الزرادشتية) التي طرحت ولأول مرة فكرة الثنوية في المعتقدات الدينية والتي لم يكن لها سبق في فكر الشرق الأدنى القديم، وتتخلص فكرة الثنوية في الفكر الزرادشتي بوجود اله خاص بالخير واله خاص بالشر وعبرت عن الأول بالنور وسمي (اهورا مزدا) أما الثاني فعبرت عنه بالظلمات وهو (اهريمن) وقد طغت تلك الفكرة على أصل التكوين ونهاية العالم وسائر الجزئيات في الفكر الزرادشتي.

لكن هناك بعض الباحثين من ذهب إلى أن الديانة الزرادشتية في الحقيقة ليست ثنوية بل توحيد وان اهورا مزدا هو الخالق الأوحد وما اهريمن إلا تجلي للشيطان، لذلك سنتناول في هذا البحث حقيقة الديانة الزرادشتية وهل هي ثنوية أم توحيد؟

زرادشت والديانة الزرادشتية:

تنسب الديانة الزرادشتية إلى زرادشت وهو من الأقوام الآرية^(١) التي توافدت إلى بلاد إيران على شكل وجبات حسب التسلسل التاريخي (مادى ها، بارسي ها، بارتي ها)^(٢) ويقصد بهم (الميديين والفارسيين والفرثيين) حيث كان ورود المجموعة الأولى في حدود أواسط الألف الثاني ق. م واستقروا في شرق إيران أما الدفعة الثانية فقد كانت في حوالي أواخر الألف الثاني ق. م واستقرت في غرب إيران والشمال الغربي^(٣)، لكن هناك اختلاف كبير في مكان وزمان ولادته حيث إن الآراء في زمان ولادته ترددت فيما بين الألف الأول قبل الميلاد وبين الألف السادس قبل الميلاد^(٤)، أما مكان ولادة زرادشت فينسب إلى المناطق الشمالية من إيران الحالية وتذهب الآراء إلى أنه من خراسان أو من ري^(٥)، أما معنى كلمة زرادشت فهي الأخرى اختلف فيها ولكن الراجح إن معناها صاحب الجمل الأصفر^(٦).

الإفستا الكتاب المقدس:

وقد احتفظ الزرادشتيون بآرث فكري يمثل لهم النصوص المقدسة والتي تعد من أهم مصادر دراسة الفكر الزرادشتي وهذا ما يطلق عليه في الوقت الحاضر (الإفستا) والذي أطلق عليه المؤرخون العرب بالابستاق^(٧) وهو يقسم إلى:

(١) ويطلق عليهم أيضا الأقوام الهندوأوربية ويقصد بهم الأقوام التي انطلقت بهجرات متعددة من الأناضول لتنتشر في أوروبا وآسيا وكانت بدايات هجرتها من موطنها الأصلي تعود إلى حوالي ٩٨٠٠ ق.م - ٧٨٠٠ ق.م ثم توالى هجراتهم إلى إيران والهند ينظر: داريوش احمد قوم آريا مجموعة بزوهشى در زمينه أديان وتاريخ إيران باستان، نشر أديان، ط ١، قم، ١٣٨٥ ش، ص ١٣٠. كذلك ينظر: ريتشارد فولترز. الروحانية في أرض النبلاء كيف أثرت إيران في أديان العالم، ترجمة بسام شيحا، الدار العربية للعلوم، ط ١، لبنان ٢٠٠٧. ص ص ٢٢-٢٤.

(٢) حسن بير نيا. تاريخ إيران قبل از إسلام (إيران قديم)، نكارستان كتاب، ط ٣، تهران، ١٣٨٨ هـ - ش. ص ٥٦.

(٣) داريوش احمدى، قوم آريا. ص ١٣١.

(٤) حسن بيرنيا. تاريخ إيران قبل از اسلام، ص ٣٥.

(٥) هاشم رضى. تاريخ مطالعات دينهاي ايراني، سازمان انتشارات فروهر، ط ١، ١٣٦٦ هـ - ش، ص ٣٣.

(٦) آر. سى. زنر. طلوع وغروب زردشتى كرى، ترجمة تيمور قادري، انتشارات مهتاب، ط ١، تهران، ١٣٨٨ هـ - ش، ص ٣٨. حسن بيرنيا. تاريخ إيران قبل از إسلام، ص ص ٢٦١-٢٦٣. كذلك ارنولد توينبي.

تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة، الأهلية للنشر، ط ١، بيروت، ١٩٨١، ج ١، ص ١٧٩.

(٧)

- أ- غائها gathas وتعتبر الأقدم والاهم من جميع باقي أقسام الافستا وذلك لنسبتها إلى زرادشت وهي عبارة عن ١٧ قسم كل قسم يسمى هات أو ها.
- ب- يسنا yasna وهي الأناشيد العبادية وتقسم إلى ٧٢ هات والتي تعتبر (غائها) من ضمنها ولكن انفردت لأهميتها.
- ت- يشتها تقسم إلى ٢١ يشت وهي مخصصة لعبادة الآلهة من غير اهورا مزدا.
- ث- ونديداد وهي الأحكام العبادية لكل فرد وللمجتمع وهي عبارة عن ٢٢ فصل.
- ج- ويسبرد وهو عبارة عن ٢٤ فصل من الأشعار التي تمجد الخير والخلق.
- ح- خرده اوستا الأدعية والأذكار وهو عبارة عن ٨ أقسام^(١).

وهذا الكتاب المقدس لم يدون في زمن واحد بل دُون في أوقات مختلفة ولم يكن كله من وحي زرادشت لذلك يوجد فيه اختلاف كبير في أقسامه المختلفة^(٢) ووضوح وأقول لفكرة معينة من قسم إلى آخر ففيما نجد أن زرادشت قد حارب الآلهة القديمة التي سبقت دعوته ولم يذكر منها احد في الغائها بالتمجيد نجد أن اليسنها خصص احدها إلى الإله مهر الذي يعتبر اله النصر والخلاص فيما قبل الزرادشتية ثم أضافوا له بعض الخصائص والمهام التي انيطت به ضمن اطر الفكر الزرادشتي دون الطعن بمكانة اهورا مزدا اله زرادشت الأوحد الذي دعا له.

وحتى فيما يخص الغائها فلا يمكن الاطمئنان الكامل لها على أنها كلام زرادشت بل نسبت إليه وذلك لان تاريخ كتابة الافستا الحالي متأخر جدا عن الاحتمالات التاريخية المرسومة لزرادشت حيث أن الافستا القديمة والأصلية كما تورد الروايات أنها كانت كبيرة جدا حيث اعتقد البعض أنها كانت قد كتبت على ما يقارب ١٢٠٠٠ جلد بقرة^(٣) وفي نسختين فقط وقد صادر احد النسختين الاسكندر المقدوني وأرسلها إلى اليونان لترجمتها واحرق الأخرى وذلك خلال الاحتلال المقدوني لإيران عام ٣٣٠ ق م. فاخذ علماء

(١) ينظر: داود الهامى. اوستا در قيرستان خاموش تاريخ، مجلة كلام اسلامى، شماره ٣٣. ص ٤٥. كذلك يزف فيزهوفر. فارس القديمة (٥٥٠ ق م-٦٥٠ م) التاريخ الحضارة العبادات الإدارة المجتمع الاقتصاد الجيش، ترجمة محمد جديد، قدمس للنشر، ط ١، سوريا، ٢٠٠٩، ص ١٢٦.

(٢) آر. سي. زنر. طلوع وغروب، ص ٣٠.

(٣) حسين توفيقى. اشنايى با دين زردشت، ضمن كتاب اشنايى با اديان بزرك، ص ٦٢. كذلك تقى الدباج. الفكر الديني القديم. ص ١٨٦.

الزرادشت يتناقضونها شفاها ويحفظونها في الصدور حتى زمن اردشير بابكان في ٢٢٦م حيث أمر بإعادة تدوينها وهي بذلك بقيت مايقارب الخمسمائة عام تتناقل في الصدور^(١).

بداية التكوين في الفكر الزرادشتي:

اعتمد الفكر الزرادشتي على أساس إن بداية الكون هي من الظلمة والنور فقد كان في الأزل مبدأ النور والذي يطلق عليه اهورا مزدا والذي بدا بخلق العالم النوراني الخالي من كل الشرور من الأمراض والآلام والأخلاق السيئة بل حتى وجود الإنسان كان نورانيا ليس بحاجة إلى الطعام والشراب ولكن اهريمن اطلع على عالم النور الذي أوجده اهورا مزدا فلم يشأ أن يتركه كما هو لذلك حاول جاهدا الولولج إلى هذا العالم وبالفعل تم له ذلك حيث انه نفذ إلى عالم النور من خلال ثقب موجود في أسفل عالم النور باعتبار أن التصور الزرادشتي للكون هو أن عالم النور في الأعلى وعالم الظلمات في الأسفل ويفصل بينهما حيز من الفراغ^(٢).

وبعد دخول اهريمن إلى عالم النور بدا بخلق موجوداته الشريرة كالإمراض والآلام والموت والشيخوخة وحتى الخصال السيئة فقد اعتبر إن من أعظم مخلوقات اهريمن الشريرة هو الكذب والجشع، اما الانسان فهو الموجود الحر الذي يستطيع ان يختار بين ان يصبح من جنود اهورا مزدا أو اهريمن بمحض ارادته^(٣).

وقد اختلف تفسير سماح اهورا مزدا لاهريمن باختراق عالمه عالم النور فهناك تفسير يذهب إلى أن اهورا مزدا لم يكن يعلم بان اهريمن له القدرة باختراق عالم النور حيث تصور ان عالم النور سوف يبقى محصنا أمام اهريمن، أما التفسير الآخر فيذهب إلى إن اهورا مزدا تعمد خلق عالم النور من اجل دخول اهريمن إليه ليتم القضاء عليه^(٤). إذ أن من أهم المبادئ الفكرية للدين الزرادشتي هو المراحل التي يمر بها الكون وهي بداية الخلق حيث النور مفصول عن الظلمة ثم فترة الاختلاط بينهما ثم في نهاية العالم انفصال الظلمة عن عالم النور على يد المنقذ السوشيانت وعودة العالم إلى طبيعته النورانية.

(١) داود الهامي. اوستا در قبرستان خاموش تاريخ، ص ٧٥.

(٢) مهرداد بهار. بزوهشى در أساطير إيران ، مؤسسة انتشارات اكاه، ط ٨، تهران، ١٣٨٩ هـ ش، ص ٣٣٦.

(٣) فراس السواح. الرحمن والشيطان الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية، دار علاء الدين، ط ٣، دمشق، ٢٠٠٤، ص ٨٢.

(٤) سعيد منتظري ومنتظر فرهودي. كونه شناسى انديشه منجى موعود در آيين زردشتى، ضمن كتاب كونه شناسى انديشه منجى موعود در آديان، انتشارات دانشگاه آديان ومذاهب، ط ١، قم، ١٣٨٩ هـ ش.

الثنوية في الدين الزرادشتي:

تبدأ الثنوية في الدين الزرادشتي منذ بداية التكوين حيث أن الآلهة الخالقة هما الهيأة الخير والشر وعبر عنهما زرادشت بالتوأم

[منذ البدء أعلنت الروحان التوأمين عن طبيعة كل منهما: الطيبة والشريرة (سبينتامينيو وانكرامينيو) فكر ظاهر وفكر غير ظاهر]^(١).

ولكليهما تقريبا الخصائص نفسها لكن بالتضاد^(٢) ماعدا أن اهريمن اله الشر لا يستطيع أن يخلق الأمور المادية من الإنسان والحيوان والجمادات لذلك هو يحاول جاهدا أن يدخل إليها النقص من خلال إدخال الشرور إليها من المرض والموت والشيخوخة إلى آخر ذلك.

ولكن بقي الاختلاف هل إن الروح الخيرة وتوأم الروح الشريرة هو اهورا مزدا أم أنها روح أخرى ويبقى اهورا مزدا فوقهما هذا ما لم يصرح به زرادشت^(٣) ولكن يحلو للبعض أن يختار الرأي الثاني دون مرجح^(٤).

إن مفهوم التوحيد الذي يطلق على مراتب التوحيد الالهي والصفات والذاتي للاله أمور قد تفوق تفكير بل حتى هموم تلك المجتمعات، فقد ذهب بعض الكتاب إلى وصف زرادشت بأنه نبي وأنه كان يعتقد (بالوهية اله واحد مطلق وعالمي ومجرد!)^(٥).

ولكن قد يكون ذلك تكلف في شرح مفاهيم زرادشت التي كانت أبسط من ذلك بكثير^(٦) وتقويله ما لم يقل فإن مفهوم التوحيد بما هو معروف حاليا لم يكن مطروحا في ذلك التاريخ وافترض أن زرادشت قد تقدم بهذا الفكر التوحيدي في ذلك الزمان قد يكون سابقا لأوانه. بل يوجد في الافستا في بعض الاحيان التوحيد واخرى الثنوية وفي بعض الاحيان يظهر تعدد الالهة^(٧).

(١) الافستا/ الهات ٣٠.

(٢) سامي سعيد الاحمد. الاصول الاولى لافكار الشر والشيطان، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٠، ص ٤٣.

(٣) آر. سي. زير. طلوع وغروب زردشتي كري، ص ٣٨.

(٤) جيفري بارندر وجون نوس. الزرادشتية، ضمن كتاب موسوعة تاريخ الاديان، ترجمة عبد الرزاق العلي، دار علاء الدين، ط٢، دمشق، ٢٠١٠، ص ٣١.

(٥) عبد الهادي طعمة عفان العتابي. اثر الصراع الفكري الساساني البيزنطي في حضارة العرب (٣٢٤-٦٥٢م)، رسالة مقدمة الى كلية التربية في جامعة واسط، ٢٠٠٨، ص ١٥٨.

(٦) سيد مجتبي اقاوي. معماي توحيد زرتشتي، مجلة علمي هفت آسمان. شماره ٢٢. ص ١٢١.

(٧) داود الهامي. اوستا در قبرستان خاموش تاريخ، ص ٧٨.

ولأجل الاطلاع على الأفكار الواردة في الافستا وفي الغائها تحديدا باعتبار أنها أكثر أقسام الافستا اطمئنانا بأنها ترجع إلى زرادشت، عند استقرارها نجد عكس الادعاء القائل بان الدين الزرادشتي هو دين توحيدى وذلك في عدة نقاط هي:

١. يعتقد زنر إن البيئة التي عاشها زرادشت هي التي أثرت في فكره الثنوي حيث أن زرادشت عاش في بيئة متناقضة من حيث المظاهر الاجتماعية والاقتصادية وتنقسم إلى البيئة الفلاحية المعتمدة على الزراعة وتربية الماشية والتي تعتبر بيئة وادعة يميل إليها زرادشت والبيئة الأخرى المتمثلة بالقبائل المحاربة التي تعتمد على أساس الخشونة والقتال وتشكل خطرا على امن واستقرار القرى الزراعية، وهذا الانقسام هو الذي ترك في زرادشت النظرة الثنوية وقد ظهر ذلك من خلال خطابه حيث انه وصف القبائل المحاربة بـ(Dregvants) أو دروغوندان أي أتباع الكذب (دروغ) الذي يعد من أهم جنود اهريمن^(١). كما انه اعد الزراعة افضل الحرف وان الحياة النموذجية هي حياة الفلاح والرعاة^(٢). وقد انعكس ذلك ايضا على المراسم التي امر بها زرادشت فانه قد حرم اجراء مراسم ذبح البقر للاله مهر بل حتى انه حارب الاله مهر ولم يذكره في الغائها، وقد اورد في الافستا خطاب لاهورا مزدا على لسان البقر تشتكي من معاملة الانسان لها ويبدأ ذلك الخطاب

[تصلي لكم روح الثور

من الذي خلقتي؟ ولأجل ماذا؟ يرهقتي ايشما الشرير يقهرني الحقد والعنف ليس لي سواك راعي فاجعل لي طبيب المراعي]^(٣).

٢. كما يظهر في الغائها أن هناك تأثيرات ومخلفات من المعتقدات الهندوaurبية في كلام زرادشت حيث أن ورود أسماء بعض الآلهة الهندوaurبية دلالة على هذا التأثير فقد امتدح زرادشت (اشه)^(٤) واعتبرها الحقيقة وهي احد الآلهة في المعتقدات الهندوaurبية.

٣. كما ان كلمة اهورا مزدا وردت بالجمع في الغائها^(١).

(١) زنر. طلوع وغروب زردشتي كري، ص ٤٣.

(٢) تقي الدباغ. الفكر الديني القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، بغداد، ص ١٨٨.

(٣) الافستا/ الهات ٢٩.

(٤) ليس هناك اجماع قاطع في معنى اشه ولكنها تفسر على انها الحقيقة والنظم والقانون الابدي للخلق لذلك ترد في الترجمات بلفظها الاصلي. ينظر: سيد مجبى اقاوي. بازخواني مفهوم موعود در دين زرتشتي، مجلة هفت اسمان، شماره٧، ص ١٠٦.

٤. ذكر أيضا زرادشت في الغائها ان اهورا مزدا لا يُستثنى من القانون العام الذي يعتمد على الاختيار بين الخير والشر
[فاجابهم اهورا مزدا المتحد مع العقل الخير وصاحب الحق المجيد اجابهم من خلال سيادته: " لقد اخترنا (آرمايتي) التقوى الطيبة المقدسة وسوف تكون انت لنا"]^(٢).

الاستنتاجات :

من اجل فهم نصوص الافستا لابد أن نقرأها بعقلية مخاطبيها وتطلعاتهم في الزمان التي كانت فيه لا أن نحملها ما نعتقد نحن، فقد فسر بعضهم إن مساعدي اهورا مزدا ما هم إلا الملائكة وما اهريمن إلا الشيطان وغيرها من المفاهيم الواردة في الدين الإسلامي بغية إثبات أن الزرادشتية هي دين سماوي وانه دين توحيد
ومع افتراض البعض أن زرادشت هو نبي وان الزرادشتية ديانة سماوية اعتمادا على الآية القرآنية الواردة {إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} ^(٣).
ومع أن الآية لم تقتصر على ذكر الأديان السماوية بل ذكرت الذين أشركوا، كما انها ليست في إطار إيضاح الأديان السماوية وغير السماوية وإنما تتحدث الآية عن مصير الجميع في الدار الآخرة. ولكن حتى مع قبول الافتراض فان عدم وجود الكتاب الأصلي لزرادشت والاعتقاد الكبير بإمكانية تحريف الافستا فيكون ضرب من الخيال الحديث عما يدور في ذهن زرادشت من خلال هذا الكتاب الذي لم يسلم من التحريف والإضافات والتأقلم مع المجتمعات والأفكار المختلفة بل حتى العودة إلى ما قبل زرادشت من الأساطير وهذا واضح للعيان وليس بحاجة إلى الاستدلال وذلك من خلال قائمة أسماء الآلهة الواردة فيه.
ولكن يمكن أن نعد الزرادشتية خطوة نحو التوحيد أو تعتبر مرحلة وسطية بين التعددية التي كانت سائدة في أفكار الشرق الأدنى القديم وبين التوحيد اللاحق لها.

(١) آر. سي. زير. طلوع وغروب زردشتي كري. ص ٤٧. كذلك داود الهامي. اوستا در قبرستان خاموش

تاريخ، ص ٨١.

(٢) الافستا. الهات ٣٢ / ١-٢.

(٣) الحج / ١٧.

المصادر:

١. القرآن الكريم.
٢. أفستا. الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية، اعداد خليل عبد الرحمن، روافد للثقافة والفنون، ط٢، دمشق، ٢٠٠٨.
٣. الاحمد، سامي سعيد. الاصول الاولى لافكار الشر والشيطان، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٠.
٤. احمدي، داريوش. قوم آريا مجموعة بزوهشي در زمينه اديان وتاريخ ايران باستان، نشر اديان، ط ١، قم، ١٣٨٥ ش.
٥. اقايبی، سيد مجبی. بازخواني مفهوم موعود در دين زرتشتي، مجلة هفت اسمان، شماره ٧.
٦. ———. معماي توحيد زرتشتي، مجلة علمي هفت آسمان. شماره ٢٢.
٧. الهامی، داود. اوستا در قبرستان خاموش تاريخ، مجلة كلام اسلامي، شماره ٣٣.
٨. جيفري بارندر وجون نوس. الزرادشتية، ضمن كتاب موسوعة تاريخ الاديان، ترجمة عبد الرزاق العلي، دار علاء الدين، ط٢، دمشق، ٢٠١٠.
٩. بهار، مهرداد. بزوهشي در اساطير ايران ، موسسة انتشارات اكاه، ط ٨، تهران، ١٣٨٩ هـ ش.
١٠. بيرنيا، حسن. تاريخ ايران قبل از اسلام (ايران قديم)، نكارستان كتاب، ط ٣، تهران، ١٣٨٨ هـ ش.
١١. توفيقی، حسين. اشنايي با دين زردشت، ضمن كتاب اشنايي با اديان بزرك.
١٢. توينبي، ارنولد. تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة، الأهلية للنشر، ط ١، بيروت، ١٩٨١، ج ١.
١٣. الدباغ، تقي. الفكر الديني القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، ط ١، بغداد.
١٤. رضي، هاشم. تاريخ مطالعات دينهاي ايراني، سازمان انتشارات فروهر، ط ١، ١٣٦٦ هـ ش.
١٥. زرن، آر. سي. طلوع وغروب زردشتي كرى، ترجمة تيمور قادري، انتشارات مهتاب، ط ١، تهران، ١٣٨٨ هـ ش.
١٦. السواح. فراس. الرحمن والشيطان الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية، دار علاء الدين، ط ٣، دمشق، ٢٠٠٤.
١٧. العنابي، عبد الهادي طعمة عفات. اثر الصراع الفكري الساساني البيزنطي في حضارة العرب (٣٢٤-٦٥٢م)، رسالة مقدمة الى كلية التربية في جامعة واسط، ٢٠٠٨.
١٨. فيزهوفر، يزف. فارس القديمة (٥٥٠م-٦٥٠م) التاريخ الحضارة العبادات الإدارة المجتمع الاقتصاد الجيش، ترجمة محمد جديد، قدمس للنشر، ط ١، سوريا، ٢٠٠٩.
١٩. فولتز، ريتشارد. الروحانية في ارض النبلاء كيف أثرت ايران في اديان العالم، ترجمة بسام شيحا، الدار العربية للعلوم، ط ١، لبنان، ٢٠٠٧.